الفصل الحادي والعشرون

العباسيون

المستظهر — المكتفى — المستنجد

٤٩٢ — ٥٦٩ هـ ؛ ١٠٩٩ — ١١٧٤ م

الصليبيون

الخليفة المستظهر — السلطان بركياروق — حروبه مع تتش وأخيه محمد — وفاة بركياروق — تولى محمد السلطنة — النزاع بين أمراء الإقطاعات — تقدم الصليبيين — وفاة السلطان محمود — وفاة الخليفة المستظهر — مبايعة الخليفة المسترشد — السلطان سانجار — سلطان المشرق — السلطان محمود سلطان العراق والشام — السلطان عماد الدين زنكى — وفاة السلطان محمود — تولية السلطان مسعود — اغتيال المسترشد — مبايعة الراشد بالخلافة — عزل السلطان مسعود — مبايعة المكتفى — حروب زنكى مع الصليبيين — تولية نور الدين محمود فوزه على الصليبيين — وفاة المكتفى ومبايعة المستنجد — إرسال شركو إلى مصر — الاستيلاء على مصر — صلاح الدين الأيوبى وفاة المستنجد — مبايعة المستضىء — وفاة نور الدين محمود

٤٩٢ـ٥٠٩ هـ
١٠٩٩ — ١١٧٤ م

لم يكن فى مكنة العالم المسيحى أن يغتنم — عمداً كان أو بطريق الصدفة — فرصة أكثر ملاءمة من تلك التى أغار فيها على القارة الأسيوية ، حيث كانت الإقطاعيات قد قوضت دعائم الإمبراطورية السلجوقية القوية وفككت أواصرها .

الإقطاعيات فى آسيا
١٠٩٩ — ١١٧٤ م

فكان ألب أرسلان قد أقطع ابن عمه سليمان آسيا الصغرى كما وهب ملكشاه الشام لأخيه تتش[1] ؛ ولكن سرعان ما استقل هذان الأميران بمملكتيهما استقلالا تاما ، ولم يعد يربطهما بالسلطان غير السيادة الاسمية . ومما

---

(١) الملقب « بتاج الدولة » .

obeikandi.com

يلاحظ كذلك أن هذا الانفصال لم يكن وحده الذى دهم الإمبراطورية الإسلامية ، بل كانت الجزيرة والشام وفلسطين موزعة بين عدة من الرؤساء الإقطاعيين ، الذين لم تكن تربطهم بالسلطان غير رابطة المساعدات العسكرية التى كانوا يسدونها إليه عند الحاجة . وتقول لنا الرواية : إنه طالما كان « نظام الملك » ذو العبقرية المنقطعة النظير « وملكشاه » صاحب الشخصية الفذة يسيطران على الإمبراطورية الإسلامية كان الرؤساء الإقطاعيون والأمراء يدينون للسلطان بالطاعة والولاء ، ولكن ما إن قضى الاثنان نحبهما حتى تمزقت أوصال الدولة وانهار بنيانها ، وحلت الحروب والاضطرابات محل الطمأنينة والسلام . وكان أولى تلك المنازعات الخلاف الذى نشب بين تركان خاتون الوصية على ابنها محمود و بين بركياروق ، بيدأن محموداً لم يلبث أن توفى فنادى بركياروق بنفسه رئيساً على الدولة السلجوقية ، وأنعم الخليفة « المتقى » عليه بلقب السلطان .

وفيما كان بركياروق منهمكا فى إصلاح شؤون الدولة شق عليه عمه تتش عصا الطاعة ، فنشبت بين الاثنين حرب طاحنة أسفرت عن هزيمة تتش وقتله . ولكن الأمور مع ذلك لم تهدأ إذ لم يمض طويل وقت حتى نشبت ثانية بين السلطان و بين أخيه محمد حروب رائعة استعر أوارها عدة أعوام غير قليلة . وتقول لنا الرواية العربية : إنه تدفقت فى تلك الأثناء على بغداد جموع الهاربين من وجه الصليبيين فى شهر رمضان ، وأخذوا يقصون على أهلها حوادث السفك وأعمال التخريب التى ارتكبها المغيرون ، فنسى المسلمون الصيام من هول الفاجعة « وقاموا بالجامع يوم الجمعة فاستغاثوا و بكوا[1] وأبكوا » حتى لم يتمالك الخليفة المستظهر بالله أن أرسل ثلاثة من رجال بلاطه إلى بركياروق ومحمد — اللذين كانا يتحاربان على مقربة من حلوان — كى يحضوهما على نبذ الخصام وتوحيد

(١) نظم أحد شعراء العصر أبو مظفر الإيبوردى قصيدة رائعة عبر فيها عما كان يخالج قلوب المسلمين وقتئذ من الحزن والأسى ، وقد اشتهر كل من ابن الأثير وأبى الفداء فى تاريخهما بسرد حوادث تلك الفاجعة .

صفوفهما لمحاربة الصليبيين ، ولـكن يظهر أن وساطة الوفد واستغاثته لم تثمر ثمرتها المرجوة ، إذ لم يكد ينقضى على صلحهما مدة وجيزة حتى نشبت الحرب بينهما من جديد بسبب اغتيال وزير بركياروق . ويقول المؤرخون بهذا الصدد : « إن الخصومة بين السلطانيين أفادت الأفرنج فائدة تذكر ، إذ أفسحت المجال لنزولهم فى البلاد الإسلامية ونشوب أظفارهم فيها » .

تولية السلطان محمد

توفى السلطان بركياروق عام ٤٩٨ هـ (١١٠٤ م) فخلفه أخوه محمد [١] الذى بلغت مدة حكمه أربع عشرة سنة ، وكان عادلا حسن السيرة شجاعا ، شاد الشعراء المعاصرون بكرمه وبره باليتامى وعطفه على الفقراء . غير أن أحوال الإمبراطورية السياسية لم تكن وقتئذ لتشجع على خلق وحدة متماسكة تقاتل العدو المشترك ، فكان التحاسد المنتشر بين مختلف رؤساء الإقطاع فى الشام والجزيرة باعثاً على نشوب الحروب بينهم ؛ وكان أمير حلب « رضوان بن تتش » [٢] قد وضحت خيانته ، كما كان الأمراء الآخرون — وإن كانوا يميلون إلى تلبية أوامر السلطان — أميل إلى مآربهم الشخصية منهم إلى خدمة قضية الوطن العامة ؛ كما جعلت الفوضى — التى سادت الدولة الفاطمية وقتئذ — من المتعذر أن لم يكن من المستحيل على مصر إسداء أية مساعدة للمدن التى غدت هدفا لغزو الأعداء .

الخلافة الفاطمية

كان الخليفة الفاطمى « المستعلى » مجرداً من كل سلطان ونفوذ فى حين كان قائد الجيش هو الحاكم المطلق المستولى على دفة الأمور ، غير أنه بدلا من أن ينتهز هذه السانحة ، ويوجه الجهود لتوحيد جيش الدولة الفاطمية ، ويتخذ خطة حاسمة للقضاء على المغيرين ، أخذ يقضى جل أوقاته فى القاهرة يحوك

---

(١) كان الفيلسوف المشهور والفقيه الذائع الصيت الإمام أبى حامد الغزالى معاصراً للسلطان محمد الذى ارتفعت عنده منزلته . وقد تزوجت فاطمة ، إحدى بنات السلطان ، من الخليفة « المقتدى » ويقال : إنها كانت على جانب عظيم من العلم والفطنة السياسية .

(٢) خلف « تتش » ولدين : رضوان ودقاق ، فولى الأول حلب والثانى دمشق .

حول منافسيه المؤامرات كى يخلو له الجو لبلوغ مآربه .

أول موقعة فى طبرية

و بالجاح السلطان محمد خفف الأمراء (الرؤساء الإقطاعيون) من غلوائهم ووحدوا صفوفهم ؛ ثم نازلوا الأعداء فى معركة أو معركتين ، ولكن بلدوين[1] ملك بيت المقدس زحف على دمشق فى أوائل سنة ١١١٣ م ، ولما عجز «طغتكين» عن صده استنجد « بمودود » أمير الموصل . وفى تموز سنة ١١١٣ وحّد أمراء الموصل ودمشق وسنجار وماردين جيوشهم ، وزحفوا على فلسطين ، فالتقى الجيشان ونشبت بينهما معركة هائلة بالقرب من طبرية انهزم فيها الفرنج هزيمة رائعة ، وغرق معظمهم فى نهر الأردن والبحيرة المعروفة باسم المدينة .

١٣ محرم ٥٠٧ هـ تموز ١١١٣ م

وفى شهر حزيران سنة ١١١٩ أنزل « الغازى » أمير ماردين بالصليبيين خسائر فادحة فى موضع يسمى بالبلاط ، وحتى المصريين أنفسهم حازوا عندئذ بعض النجاح على سواحل البحر ، وتغلبوا على الفرنج فى بعض المعارك : بيد أن أوربا برمتها كانت تشد أزر الصليبيين والنجدات كانت تتدفق عليهم من جميع أنحاء العالم المسيحى كما أثر مقتل « مودود » — الذى اغتاله أحد الباطنيين بعد موقعة طبرية — وانشقاق الزعماء المسلمين تأثيراً سيئاً ، وأعانا الصليبيين على استرداد المواقع التى كان المسلمون قد استولوا عليها ؛ وهكذا أخذ الصليبيون يبسطون سلطانهم ، ويستولون على المدن الإسلامية واحدة تلو الأخرى ، ويعيثون فى البلاد ويذبحون السكان ، ويثقلون كاهلهم بفروض الذلة والاستعباد .

حزيران ١١١٩ م

وفى سنة ٥١١ هـ توفى السلطان محمد ، وبعد عام توفى الخليفة المستظهر ، وكانت مدة خلافته خمسا وعشرين سنة ، وخلفه ابنه أبو منصور الفضل الملقب « بالمسترشد بالله » .

١٠ ذوالحجة ٥١١ هـ ١٨ نيسان ١١١٨ م

لم تمر وفاة السلطان محمد دون أن تترك أثراً بارزاً فى مصائر المسلمين والنصارى معاً ، فقد خلفه أخوه سنجر[2] — آخر أبطال الشعب السلجوقى الباسل — ثم

أبو منصور الفضل المسترشد بالله ١٦ آب ١١١٨ م

(١) يسميه ابن الأثير « بغدوين » بينما يسميه المؤرخون الآخرون « باردفيل » .
(٢) هو صديق أنوارى الشاعر المعروف .

ولى الملك من بعده ابنه محمود الملقب بحامى المسلمين والذائد عن حياضهم . وتقول الرواية العربية : إنه لم يصد هجمات الفرنج فحسب بل قاتلهم أيضاً عن كل شبر من الأرض التى كانوا قد احتلوها ، وأجلاهم عن مواقعهم مثقلين بالهزيمة . أما عماد الدين زنكى — بطل المؤرخين النصارى — فهو ابن آق سنقر[1] «قاسم الدولة» الذى لعب دوراً خطيراً فى الأيام التى سادت فيها الاضطرابات على أثر وفاة رئيسه الأكبر ، وقد أعقب ولداً واحداً اسمه زنكى ، ومع أنه لم يكن قد ناهز الرابعة عشرة ، إلا أن جميع الزعماء والأمراء التفوا حوله وحبوه بولائهم لما ظهر عليه من دلائل النبوغ ، وقوة الشكيمة ، و بعد الهمة ، والكفاية العسكرية والإدارة الممتازة .

وفى عام ٥١٦ هـ أقطع السلطان «محمد» الأمير زنكى مدينة واسط وشاهناه البصرة ، كما أسند إليه بعد أربع سنوات إمارة الموصل والجزيرة العليا ، ولقبه «بأتابك» ؛ وعندئذ أرسل له الخليفة العهد والعقد التقليدين . ومما يجب الإشارة إليه بهذا الصدد أنه يعتبر المؤسس للأسرة الأتابكية فى الموصل ، ويصف لنا ابن الأثير ضعف حالة المسلمين فى تلك الأيام وصفاً مؤثراً بقوله : «كان جيش الصليبيين عظيما ، واشتدت أفعالهم فارتكبوا كل محرمة دون خوف من عقاب ، وامتدت مملكتهم من ماردين فى أعالى الجزيرة إلى مدينة العريش على حدود مصر ، وأخضعوا مدينة حران والرقة ، وامتد جيشهم حتى أبواب نصيبين ، وقطعوا جميع الطرق إلى دمشق ما عدا طريق الصحراء المار بالرها ، وفرضوا الجزية على المدن ، وقاسموا حلب على جميع دخلها حتى على رحا لأهلها بظاهر باب الحنان» .

---

(١) كان جنديا قديراً ، وإداريا حازماً سادت فى أيامه العدالة وأصبحت السبل ساكنة والمخاوف آمنة والأسواق معتدلة ، وقد وضع نظاما يقضى بأنه إذا وقعت حادثة سرقة فى إحدى المناطق فرضت قيمتها على جميع القرى المجاورة لها ، وقد أخذت بهذه النظرية الممالك العصرية .

أما زنكى فقد بذل قصارى جهده فى تحسين موارد البلاد ، ونظم الجيش ، وحشد قوة كبيرة لإجلاء الفرنج عن الجزيرة ، وأضحى باستيلائه على منبيج و بيزا أو (بوزا) سيد الموصل دون منازع . وفى سنة ١١٢٨ زحف على مدينة حلب تلبية لطلب أهلها — الذين كانوا قد لقوا من الصليبيين أشد الأهوال — واستولى عليها عنوة ، ولم يمض سوى قليل حتى استنصر به أهل حماة . وفى السنة التالية هزم زنكى الصليبيين[1] عند أسوار « قلعة الأثارب » ، واستولى عليها بعد مقاومة شديدة ، ثم عقد الصلح مع جسكلين أمير الرها الذى يسميه ابن الأثير « أعظم شياطين الصليبيين » .

احتلال مدينة حلب ٥٢٢ هـ ١١٢٨ م

٤٩٢–٥٦٩ هـ

و بعد أن أحرز زنكى هذا النصر الباهر ، انغمر فى الحروب الداخلية التى دارت رحاها على أثر وفاة السلطان محمود ، الذى كان قد أوصى بالملك لأخيه مسعود ، غير أن أخاه الآخر سلجوقشاه نازعه السيادة ؛ فنشب قتال بين الأخوين ، ولكنهما عادا فتصالحا ، ثم زحفا على عمهما « سنجر » فهزمهما فى موقعة « دمارج » وعاملهما برغم ذلك بالعطف والكرم وأقرهما على ممتلكاتهما . و بعد مدة يسيرة نشبت معركة بين الخليفة المسترشد ومسعود دارت فيها الدائرة على الخليفة نفسه ، ووقع أسيراً فى قبضة خصمه ؛ وفيما كان الخليفة مقيما فى خيمته هجمت عليه جماعة من الباطنية وفتكوا به ، فخلفه ابنه أبو جعفر المنصور ولقب « بالراشد بالله » ؛ ولكن مع ذلك لم يبق فى كرسى الخلافة غير بضعة أشهر ، إذ أدى النزاع الذى نشب بينه و بين السلطان مسعود إلى أن يغادر[2] الأول إلى الموصل ، وأن يجمع مسعود القضاة والفقهاء ، و يعرض عليهم اليمين التى كان قد حلفها الراشد بالله[3] ، فأفتوا بخروجه من الخلافة ، ثم بايعوا من بعده أبا عبد الله بن المستظهر الذى لقب

وفاة السلطان محمود ٥٢٥ هـ ١٠٣٠ — ١٠٣١ م

موقعة دمارج رجب ٥٢٦ هـ أيار ١١٣٢ م

الخليفة المسترشد

أبو عبد الله المقتفى لأمر الله

(١) يسميهم ابن الأثير بالشياطين .

(٢) وقد رافقه عماد الدين زنكى صاحب الموصل . (المعرب)

(٣) وهى : « بأنه متى جند أو خرج أو لقى أحداً من أصحاب السلطان بالسيف فقد خلع نفسه من الأمر » . (المعرب)

« بالمقتفى لأمر الله » ولما كانت سلطة ملوك السلجوقيين يومئذ قد ضعفت ، فقد انتهز « المقتفى » تلك الفرصة وظل يقوى نفوذه فى العراق وكلدة حتى استرد سلطته الزمنية فى الولايات الداخليـة . أما أتابك زنكى فقد حصر جُلّ اهتمامه بالشام وصرف النظر عن المشرق . ويقال إن الصليبيين بدأوا فى تلك الأثناء يغيرون على البلاد الإسلامية مرة أخرى بعد أن جاءهم المدد من أوروبا ، والتحقت بهم قوة عظيمة من الروم بقيادة الإمبراطور « جون كومانوس » نفسه ، فاستولوا على « بذاعة » وأعملوا السيف فى رقاب أهلها الذكور ، وأسروا النساء والأطفال ، ثم زحفوا على حصن « سيزر » مسقط رأس أسامة[1] وهو يبعد مسيرة يوم واحد عن حماة ومشيد على صخرة هائلة لايمكن الوصول إليها إلا من طريق ضيق جداً منحوت فى الجبل ، ويجرى من تحته نهر العاصى ، ثم يمتد عبر وهـدة قد شيد فوقها جسر خشبى ، فإذا مافتح الجسر تعذر الوصول إليه ؛ وقد كان فى مستهل القرن الخامس ملـكا لمنقذ الـكنانيين ، وكان لموقعه الحصين ولقربه من حماة من جهة ، ومن مراكز الصليبيين من الجهة الأخرى أهمية عظمى عند الفرنج والصليبيين ، ولهذا لم يكد زنكى يصله خبر استغاثة أبى عسكر سلطان الذى كان عندئذ حاكم سيزر حتى لبى دعوته ، وتقدم بجيشه لانقاذ الحصن من المغيرين . غير أن الروم لم يلبثوا أن رفعوا الحصار وعادوا إلى بلادهم ، وعندئذ انتهز زنكى تلك الفرصة واستولى على قلعة أركة الواقعة داخل حدود إمارة طرابلس ودمرها تدميراً ، ثم استولى على بعلبك واستعمل عليها نجم الدين أيوب أبا صلاح الدين الأيوبى ، غير أن أتابك لم يستطع إجلاء الفرنج عن الشام طالما كان يحكم دمشق أمير مستقل .

١٠٩٩ — ١١٧٤ م

شعبان ٥٣٢ هـ نيسان ومايس ١١٣٨ م

١١٣٩ م وفى عام ٥٣٤ هجم أتابك على الفرنج بالقرب من « بارن » فى موقع يعرف

(١) يعتبر الأمير أسامة الملقب بمؤيد الدولة من الأبطال الأولين ، وله مذكرات اسمها (كتاب الاعتبار) نشر فى باريس سنة ١٨٨٤م .

« بجبل فيران » واستولى عليه عنوة ، وكان ذلك الحصن من أمنع حصون الصليبيين الذين كانوا قد اتخذوه معقلا ليشنوا الغارة منه على المدن الواقعة بين حلب وحماة .

احتلال الرها سنة ١١٤٤م

وفى عام ٥٣٩ هـ انتصر «أتابك» انتصاراً باهراً باستيلائه على مدينة «الرها» التابعة لجوسكلين الثانى « بطل الصليبيين وشيطانهم » ، وفى الواقع سمى هـذا النصر « بنصر الأنصار » ، إذ كان المسيحيون يعتقدون أن الرها من أعظم مدنهم على وجه الإطلاق نظراً لكونها مقراً لإحدى أسقفياتهم بعد بيت المقدس وأنطاكية وروما والقسطنطينية ؛ ومما لا شك فيه أنها كانت وقتئذ تعد مفتاح الجزيرة ، وبالإستيلاء عليها تمكن زنكى من القبض على ناصية الأمور فى المناطق والحصون الأخرى المجاورة لها . وتقول لنا الرواية : « إنه لما أوفى على المدنية أمّن أهلها على أرواحهم وأملاكهم إن هم سلموا دون مقاومة ، ولـكنهم رفضوا إجابة شروطه ، وأبوا التسليم ففتحها عنوة ، وفكر فى صب جام غضبه على أهلها ليثأر للفظائع التى ارتكبها الصليبيون فى بيت المقدس وأنطاكية ، ولـكن مروءته تغلبت على سخطه ، فلم يقتل أحداً غير المحاربين والرهبان والقسس الذين كانوا يحرضون جنود الفرنج على القتال ، وقد أطلق سراح جميع الرجال والنساء والأطفال الذين وقعوا فى أيدى الفاتحين ورد إليهم أموالهم » .

١٠٩٩ — ١١٧٤م

وبعد أن وضع « أتابك » حامية قوية فى المدينة تابع زحفه فافتتح سروج وباروة والقـلاع الأخرى التى كانت فى أيدى الصليبيين ، وفيما كان يحاصر « قلعة جعبر » هجم عليه وهو نائم أحد مماليكه بتحريض من أعدائه وفتك به ؛ وهكذا قتل أحد أبطال ذلك العهد[1] المشهورين ، وكان حاكما عادلا كريما عاقلا . ويقال إنه لما استولى على الجزيرة كان الجزء الأكبر منها ومن الشام غير ذى زرع ، وكان الفلاحون فى حالة يرثى لها من الفقر والخراب ؛ أما الحركة

اغتيال عماد الدين زنكى ١٤ — ٩ — ١١٤٦م

(١) ويسميه ابن الأثير بالشهيد .

التجارية فكانت مشـلولة بسبب غزوات الفرنج المتوالية ، ولـكنه أقبل على إحياء الزراعة ، والاهتمام برفاهية السكان ، فنعمت البلاد فى ظله بنعمة الطمأنينة والعدل ؛ كما شيد المدن المخربة ، وشدد الوطأة على القتلة واللصوص ، ونظف البلاد من السفاكين والنهابين ؛ وقد كان فوق ذلك يهتم اهتماما خاصا بالمحافظة على سمعة الحريم ، و يشدد الوطأة على كل من يعتدى عليهن وعلى أهل العيث والفساد ؛ وكان من عادته أن يوزع الصدقات سرا فى سائر أيام الأسبوع عدا أيام الجمعة حيث كان يوزع مائة دينار علناً على الفقراء والمعوزين ؛ وكان صديقاً وفيا لأصدقائه ، وسيداً مهابا يراعى النظام بكل دقة فى معسكره ، وكان لا يعدله فى البر بالعلماء غير وزيره جمال الدين الملقب بالجواد الذى كان يقوم علاوة على منصبه بوظيفة (المشرف) . ومن المأثور عن زنكى قوله : إنه يؤثر ظهور الخيل على الفراش الوثير ، وصلصلة السيوف على أشجى الأنغام ، وقرقعة السلاح على مغازلة الغانيات الفاتنات . وقد أعقب أربعة أبناء هم : سيف الدين الغازى وهو أكبرهم وقد أسندت إليه إمارة الموصل ؛ ونور الدين محمود الذى ورث عن أبيـه لقب حامى المسلمين و إمارة حلب . أما الابنان الآخران فهما قطب الدين مودود ؛ ونصرة الدين أمير ميران . وقد تدرب سيف الدين وأخوه نور الدين على الفنون العسكرية ؛ أما نور الدين فلم يكن جنديا فحسب بل كان أيضاً عالما فقيهاً مولعاً بتشجيع العلوم والفنون ، فأسس الكليات والمستشفيات فى جميع أنحاء المملكة وكان يفيض على طلاب العلم والعلماء الذين كانوا يؤمون بلاطه بكرمه وسخائه ، كذلك كان أول من أسس محكمة عليا نظامية ، وأطلق عليها اسم « دار العدل »

٤٩٢–٥٦٩ م

نور الدين محمود

١٠٩٩ — ١١٧٤ م

ولما كان تقدير الملوك — كما يقول المؤرخ الانكليزى المشهور غيبون — لا يكون صحيحاً إلا بعد وفاتهم ، و بخاصة إذا كان هذا التقدير صادراً عن أعدائهم ؛ وقد وصف لنا « بطريرك صور » السلطان نور الدين — الذى كان فى نظره من أشد أعداء النصرانية — « بأنه كان ذا عقل ودين متين » وكان

صفاته

جل أمانيه فى الحياة أن يوفر أسباب السعادة والرفاهية للشعب .

وقد حدث عقب اعتلاء نور الدين عرش حلب أن ثار عليه نصارى الرها تؤازرهم قوة كبيرة من الفرنج بقيادة جوسلين ، وانقضوا على حامية المدينة ، وفتكوا بجنودها وأهلها المسلمين ، ولكن نور الدين هاجمهم وفتك بهم فتكا ذريعاً ، وأثخن فى جنود جوسلين والخونة المارقين الذين ساعدوهم ، كما أمر بنفى الأرمن الذين كانوا حلقة الاتصال بين الخونة و بين الصليبيين .

الحروب الصليبية الثانية ٥٤٢ هـ ١١٤٧ م

ويقال إن سقوط مدينة الرها مرتين فى قبضة المسلمين أثار سخط أهل أوربا ، فقامت حركة دينية شبيهة بالحركة الأولى ، ويرجع الفضل فى إشعالها هذه المرة إلى الراهب الفرنسى « سان برنارد » فانتظم فى عقد هاته الحملة المقدسة سنة ١١٤٧ — لإنقاذ مجد اللاتين الضائع — إمبراطور ألمانيا كونراد الثالث ، وملك فرنسا لويس السابع ؛ ويقول المؤرخون المعاصرون : إن هذين الملكين سارا فى تسعمائة ألف مقاتل لمساعدة إخوانهم فى الشام وفلسطين ، وقد اصطحب ملك فرنسا زوجته « أليانور كوين » ، التى تزوجت فيما بعد من ملك الانكليز هنرى الثانى ، وحذت حذوها جماعة من النساء اللواتى انتظمن فى عقد الحملة المنكودة ، وسرن حاملات الرماح والدروع فى صفوف الجيش الألمانى والجيش الفرنسى ، وقد أدى وجود هاته النسوة بطبيعة الحال إلى انتشار ضروب الفساد فى صفوف الجيش ، ووقعت الكارثة المحتومة ، كما تكبد الملكان أفدح الخسائر فى أثناء زحفهما على الشام حيث أبيد القسم الأعظم من جيش « كونراد » بظاهر اللاذقية ، بينما فنى معظم جنود الملك لويس فى سيرهم إزاء سواحل آسيا الصغرى على قمم جبال كادمس المعروف الآن بباباداغ . وعندما غشى لويس مدينة أنطاكية التى كانت فى قبضة ريموند كان قد فقد ثلاثة أرباع جيشه ، وكانت تقيم فى تلك المدينة — التى كانت تضطرم بالشهوات البهيمية فى ذلك الحين — أميرة طولوز ، وأميرات بلو وسيبيل أوف لاندرس ، وموريل وأميرة روسى ،

٤٩٢ـ٥٦٩ هـ

٢٥ تموز ١١٤٨ م

وتلكورى و بولون ، وكثيرات غيرهن من المشهورات بالجمال ونبل المحتد . وفى مدينة أنطاكية انغمس المحاربون وحماة الصليب فى الشهوات والملذات ، وكانت ولائم ريموند تستحيل إلى سكر وعربدة ، كما كانت الملكة ألينور قد ذاعت فضائحها الغرامية وتهافت العشاق عليها . و بعد أن انتعش الصليبيون فى أنطاكية ، وجددوا قواهم زحفوا على دمشق ، ولكن قوات نور الدين محمود وسيف الدين غازى[1] كانت قد اقتربت للدفاع عنها ، ولما رأى الصليبيون أنهم أمام قوة هائلة لا قبل لهم بها رفعوا الحصار وارتدوا إلى فلسطين ، ولم يلبث كونراد ولويس أن عادا إلى أوروبا ، وهكذا فشلت الحرب الصليبية الثانية فشلا مريعاً .

نهاية الحرب الصليبية الثانية

ومن ثم تفرغ نور الدين محمود إلى محاربة الفرنج فى المواقع الأخرى ، فاستولى عنوة على قلعة « العريمة » وهى من أمنع القلاع على حدود الشام ، وألحق بالنصارى خسائر عظيمة فى قلعة « زغرة » على مقربة من أنطاكية ، وفى المعركة التى دارت عند أسوار « عنتاب » قتل الأمير ريموند « أمير أنطاكية » ، وألحق المسلمون بجيشه خسائر فادحة ، وقد أعقب ريموند طفلا صغيراً يدعى بوهيموند و يسميه « العرب بيمند » ؛ ولكن أمه لم تلبث أن تزوجت من قائد ثان ، لاقى هو الآخر حتفه بعد أن وقع أسيراً فى قبضة نور الدين فى معركة صغيرة دارت فيها الدائرة على جيش الفرنج .

١٠٩٩ — ١١٧٤ م

١١٨٤ — ١١٤٩ م

وفى عام ٥٤٤ هـ اكتسح نور الدين قلعة « أفامية » التى تبعد مسير يوم واحد عن حماة واستولى عليها عنوة ، ولكنه بعد عامين أصيب بهزيمة فى موقعة دارت بينه و بين جوسلين الثانى ، غير أنه لم يلبث أن ثأر للهزيمة التى لحقت به ، وأسر جوسلين الذى يقول فيه ابن الأثير : « كان أسره من أعظم الفتوح لأنه كان شيطاناً عاتياً شديداً على المسلمين قاسى القلب ، وأصيبت النصرانية كافة

الاستيلاء على قلعة أفامية ١١٤٩ — ١١٥٠ م أسر جوسلين

(١) توفى سيف الدين غازى فى تشرين الثانى ولم يعقب ولداً ولهذا ولى أخوه المسمى قطب الدين مولود أتابكة الموصل .

بأسره » . وقد استطاع نور الدين بعد هـذا النصر أن يستولى على عدة مدن كانت فى قبضة الصليبيين كقلعـة « تل باشر » و « عنتاب » و « نهر الجوز » و « برج الرصاص » ؛ وقد دارت معركة أخرى فى « دلوك » انكسر فيها الفرنج وأصيبوا بهزيمة شديدة ، وبذلك تم لنور الدين فتح معظم ولاية أنطاكية .

معركة دلوك

وفى عام ٥٤٧ هـ (١١٥٢ — ١١٥٣ م) توفى السلطان مسعود وخلفه ابن أخيه الملكشاه السلطان محمود وهو آخر سلاطين تلك الأسرة .

ولـكن طالما كانت دمشق فى قبضة أمير مستقل مشكوك فى أمانته كان نور الدين يجابه كأبيه صعوبات جمـة فى حروبه مع الصليبيين ، الذين قويت شوكتهم بالاستيلاء على « عسقلان » الواقعة على ساحل البحر ، فاستأنفوا جهادهم لغزو عاصمة الشام[1] ؛ وفى هذا الوقت العصيب استنجد أهالى دمشق بنور الدين الذى لبى طلبهم فى الحال ، وأقطع حاكمهم[2] إمارة مدينة حمص عوضاً عن دمشق التى ولى عليها ابن زنكى المظيم بين فرح الشعب وغبطته .

عسقلان ٤٩٢–٥٦٩ هـ

وقد أنعم الخليفة على نور الدين بلقب « الملك العادل » تقديراً له على انتصاره على الصليبيين ، وفى تلك الأثناء حصلت هدنة قصيرة بينه وبين الصليبيين استطاع أن يعمر فى أثنائها الخرائب التى سببتها الزلازل .

وفى عام ١١٦٠ توفى الخليفة المـكتفى ، وخلفه ابنه أبو المظفر يوسف الملقب « بالمستنجد بالله » . وبعد ست سنوات سير نور الدين الحملة المشهورة على مصر ، وكانت الخلافة الفاطمية وقتئذ قد تداعت أركانها ، وكان آخر خلفائها المسمى « العاضد بدين الله » قد بلغ منتهى الضعف والاستـكانة . وتقول لنا الرواية : إنه بينما كان وزيره شاور السعدى مستأثراً بالحـكم نازعه زعيم آخر اسمه ضرغام

وفاة الخليفة المـكتفى ١٢ — ٣ — ١١٦٠ م

(١) وفى أيام طفتكين اتفق الصليبيون مع الباطنيين على الزحف على دمشق ، ولـكنهم ردوا على أعقابهم بعد أن منوا بخسائر فادحة .

(٢) هو مجير الدين آبك وكان قد تكاتب سرا مع الفرنج على خيانة البلاد غير أنه أقصى من حمص وبعد موته ولى ابنه تاج الملوك ولاية دمشق .

نيسان ١١٦٤م على السلطة وغلبه عليها ، فهرب شاور إلى الشام مستنجداً بأمير دمشق أن يساعده على استرداد منصبه ، على أن يمده هو بالجنود المصرية و يقطعه الأراضى الشاسعة ويدفع له جزية سنوية ، ولـكن نور الدين أبى فى بادئ الأمر ، غير أنه لم يلبث أن أجابه إلى سؤله ، وأرسل معه قوة من جيشه بقيادة «أسد الدين شركو» عم صلاح الدين المشهور . وما كاد شاور يسترد نفوذه حتى اتصل بالفرنج ، ونسى كل العهود التى قطعها على نفسه لنور الدين فلبى الصليبيون طلبه ، غير أنهم عجزوا عن طرد شركو بعد أن حاصروه مدة ثلاثة أشهر فى بلبيس ، ولـكنه عاد ووافق من تلقاء نفسه على الجلاء عن مصر .

تشرين الأول وتشرين الثانى ١١٦٤ م

آب ١١٦٤م وفى رمضان سنة ٥٥٩ هاجمت نور الدين جيوش الفرنج والروم معاً ، وكانت المعركة التى دارت عند أسوار قلعة « حارم » من أشد معارك الصليبيين ، غير أن نور الدين مع ذلك ألحق بالفرنج هزيمة منكرة ، وأسر معظم قوادهم أمثال بومند وأمير أنطاكية وريموند حاكم طرابلس وجوسلين الثانى وقائد الروم ، وعلى أثر هذا النصر الباهر أذعنت قلعت حارم ، وقلعة بانياس وحصن المنيطرة بالتسليم .

كانون الثانى وشباط ١١٦٧ م وفى سنة ٥٦٢ احتل شركو مصر ثانية ، ولما استنجد « شاور » بالفرنج لبى طلبه « أمورى » الذى كان قد ارتقى عرش بيت المقدس منذ حين ، فرأى الفرصة سانحة وقتئذ للاستيلاء على مصر والاستئثار بها ، وما هى إلا برهة حتى سير جيشا لنجدة شاور . ويقول لنا ميشو : «إن زحف جيوش شركو وفوزه النهائى فى واقعة بلبيس ينهضان دليلا على كفاية عسكرية ممتازة » ، ويقول ابن الأثير : « لم يعرف التاريخ حادثة أعظم شأنا وأجل خطراً من تلك الحادثة التى تغلبت فيها الجيوش المصرية على جيوش الفرنج » .

٤٩٢–٥٦٩هـ

و بعد أن أحرز شركو هذا النصر الباهر استولى على الإسكندرية ، ونادى بنفسه حاكما عليها ، وكذلك عقدت معاهدة صلح بين المصريين والفرنج من جهة و بين نائب نور الدين من جهة أخرى ؛ وقد اشترط فيها أن يسحب « أمورى »

جيشه من مصر ، ويمتنع عن أى تدخل فى شؤونها على أن يغادر شركو الإسكندرية إلى الشام ويعطى له مقابل انسحابه خمسين ألف دينار ؛ غير أن الصليبيين كانوا قد اتفقوا سرا مع شاور على أن يسمح لهم بترك حامية فى الفسطاط خلافا لشروط المعاهدة المعقودة مع شركو ؛ وتقول لنا الرواية : إن هؤلاء الجنود الذين عسكروا على مقربة من الفسطاط ، وفى بعض المدن الأخرى أخذوا يرتكبون شتى الفظائع ، فلم يتمالك الخليفة « العاضد » إلا أن يستنجد بنور الدين الذى سير « شركو » ثانية على رأس حملة كبيرة للقضاء على الصليبيين ؛ وما إن وافى « شركو » مصر حتى أسرع الصليبيون بترك البلاد بعد أن أعملوا فيها يد النهب والتخريب . وفى ٨ كانون الثانى سنة ١١٦٩ دخل شركو الفسطاط ، فاستقبله المصريون والخليفة الفاطمى استقبالا منقطع النظير . ولما قتل شاور تقلد شركو منصب الوزارة و إمارة الجيش ، ولكنه لم يكد يمضى فى الحكم شهرين حتى وافته منيته ، فخلفه ابن أخيه صلاح الدين يوسف ولقب « بالملك الناصر » وظل مع ذلك يعد نفسه نائباً عن نور الدين ، واستطاع بعدله وكرمه أن ينال رضاء الشعب وحبه ؛ وكان العاضد فى تلك الأثناء على فراش الموت ، فانتهز صلاح الدين — الذى كان حنفى المذهب — هذه الفرصة وأعاد سلطة الخليفة العباسى فى مصر .

٨ — ٩ — ١١٦٩ م

١٠٩٩ — ١١٧٤ م

وفى سنة ١١٧٠ توفى الخليفة المستنجد وخلفه ابنه أبو محمد الحسن ولقب « بالمستضىء بالله » . ويصفه ابن الأثير « بأنه من أحسن الخلفاء سيرة مع الرعية فهيا ، كثير الرفق بهم ، شديداً على أهل العيث والفساد والسعاية بالناس » .

وفاة المستنجد مبايعة أبى محمد الحسن المستضىء بالله ٢١ — ١٢ — ١١٧٠ م

وفى سنة ٥٦٥ هـ (١١٧٠ م) توفى قطب الدين مودود ثالث أبناء زنكى ، فارتقى ولده « سيف الدين غازى » عرش المملكة الزنكية ، وفى عهده اضطربت الأمور فى الموصل ، فأسرع نور الدين إلى نجدة ابن أخيه ، ونظم مملكته واحتفظ لنفسه بإدارة الجيش .

وفى محرم سنة ٥٦٧ توفى آخر الخلفاء الفاطميين ، و بموته انقرضت الخلافة
الفاطمية[١] ، وغدت مصر تابعة للنفوذ الروحى للخليفة العباسى فى بغـداد ، ٤٩٢ —
كما أصبح صلاح الدين الحاكم المطلق فى مصر ، وكان يبدى خضوعه وولاءه ٥٦٩هـ
لنور الدين ، ولكنه ما عتم أن استقل بملك مصر بعـد وفاته ، ولم يكن
صلاح الدين حينئذ قد ناهز[٢] الخامسة والثلاثين ، وكان قد تقلد عدة مناصب
قبل رحيله مع عمه إلى مصر . ويصفه مترجمه[٣] : « بأنه كان رجلا تقيا ، هادئ
الأخلاق ، بسيطاً فى معيشته ، فارساً شجاعا ، وطد النفس على النهوض بشعبه
إلى مراقى السعادة والهناء » .

وفى سنة ٥٦٩ هـ أرسل صلاح الدين أخاه تورنشاه بموافقة سيده لإخضاع ١١٧٣ —
اليمن فتم له فتحها . ١١٧٤م

وبموت نور الدين استطاع صلاح الدين أن يوطد ملكه ويدعم استقلاله فى
مصر وجزء من بلاد النوبة والحجاز واليمن .

ولم يعقب نور الدين غير ابن واحد يدعى إسمعيل الملقب بالملك الصالح ، ١٥ —
وكان عمره وقتئذ إحدى عشرة سنة . ١١٧٤ م

---

(١) بلغ مدة حكمهم ٢٦٦ سنة .
(٢) ولد صلاح الدين سنة ١١٣٧ — ١١٣٨م (٥٣٢هـ) .
(٣) هو القاضى بهاء الدين أبو المحاسن يوسف المعروف باسم ابن شداد ، وكان يقوم بوظيفة قاضى العسكر ومستشار صلاح الدين .

obeikandl.com